# التجديد الشعري في المغرب العربي

## أبو القاسم الشابي

ولد أبو القاسم الشابي في 24 فيفري 1909 في قرية (الشابية) بمدينة توزر الواقعة في الجنوب التونسي. وكان والده الشيخ محمد الشابي قاضيا ينتقل بين مختلف المدن التونسية حيث تمتع الشابي بجمالها الطبيعي الخلاب، ففي سنة 1910 عين قاضيا في سليانة ثم في قفصة ثم في قابس 1914 ثم في جبال تالة 1917 ثم في مجاز الباب 1918 ثم في رأس الجبل 1924 ثم في زغوان1927، وكان الشيخ محمد ينقل أسرته معه بين هذه المدن وفيها ابنه البكر أبو القاسم، ثم توفي محمد الشابي في 8 سبتمبر 1929 بعد رجوعه إلى توزر.

وقد تأثر الابن أبو القاسم الشابي بأبيه الشيخ محمد الشابي الذي كان رجلاً صالحاً تقياً يقضي يومه بين المسجد والمحكمة والمنزل، ولأبي القاسم الشابي ثلاثة إخوة: محمد الأمين وعبد الله وعبد الحميد، أما محمد الأمين فقد ولد في عام 1917 في قابس وانتسب إلى المدرسة الصادقية أقدم المدارس التونسية لتعليم العلوم العصرية واللغات الأجنبية ثم أصبح محمد الأمين مدير فرع خزنة دار المدرسة الصادقية نفسها، ثم أصبح أول وزير للتعليم في عهد الاستقلال بعد توليه المنصب من عام 1956 إلى عام 1958 .

أما أبو القاسم الشابي فقد تخرج من جامع الزيتونة أعرق الجامعات العربية، ويبدو أنه كان مصاباً بداء القلب منذ صغره حيث كان يشكو انتفاخاً في قلبه ولكن حالته ازدادت سوءاً فيما بعد بعوامل متعددة منها التطور الطبيعي للمرض مع تقدم الزمن، بالإضافة إلى أنه كان في الأصل ضعيف البنية، وعلى الرغم من علمه بمرضه وظهور الأعراض المرضية عليه منذ عام 1929 إلا أنه تزوج نزولا عند رغبة أبيه، ومع حرصه الشديد على الاستقرار بالأماكن المعتدلة حسب ما نصحه الأطباء فقد

ظلت حالته تزداد سوءا حتى توفي أبو القاسم الشابي في مستشفى العاصمة تونس في 9 أكتوبر 1934.

خلّف ديوانا شعريا عنوانه (أغاني الحياة)، وكتابا نقديا عنوانه (الخيال الشعري عند العرب) يتضمن مقالات ألقاها الشابي في مناسبات مختلفة حول بعض المفاهيم الشعرية الجديدة وفق الرؤية الرومنسية.

وقد تأثّر الشابيّ بالمذهب الرومانسي، واستطاع أن يمزج بين إحساسه ومظاهر الطبيعة المتنوعة التي عاش فيها، حيث ولد في منطقة جبلية وتنقل منذ صباه من منطقة إلى أخرى، واتّخذ من الغاب والبلبل والعصفور والزنبقة مستودعاً لأحلامه وأسراره وهمومه، لأنه لم يجد أفضل من الطبيعة يلجأ إليها ويبثّها شكواه.

**أما التجديد الذي أبدعه الشابي فيظهر في الموضوعات التالية:**

## 1- الروح الفردية:

فهو في قصيدته أحلام الشاعر يتمنّى أن يعيش في أحضان الطبيعة بعيداً عن الناس، ويخلو بذات نفسه، ويحلم ويستسلم ويصغي إلى صوت فؤاده، لأن حياة الفرد هي التي تمنحه الشعور بالاستقلال وتميز الذات عن الغير، وتعطيه قوة الثقة بالنفس وحرية الاختيار، فيقول:

| | |
|---|---|
| ليت لي أن أعـيش في هــذه الـدُّنـ | ـيا سعـيداً بوحـدتي وانفرادي |
| أَصْرِفُ العمرَ في الجـبالِ وفي الغا | باتِ بـيـن الصّـنـوبـر الميّــاد |
| ليس لي من شواغل العيش ما يصـ | ـرف نفسي عن استماع فـؤادي |
| أرقب المــوت والحيــاة وأصــغي | لـحــديــــثِ الآزالِ والآبـــادِ |
| وأغــــنّي مـع البـلابـل في الـغا | ب وأصـغي إلى خريـرِ الـوادي |
| عيشـــــةً للــجـمـــال والفـنّ أبغيـ | ـها بعيـداً عــن أمّـتي وبـلادي |

## 2- الهيام بالطبيعة:

أ – الطبيعة الصامتة:

والشابي في قصيدته (إلى الغابِ) يسعى إلى نسيان همومه وأحزانه، ويشير إلى الشعور الذي يملأ عليه دنياه بهجةً وسروراً ويسوقه إلى عالمٍ من الخيال، ينتابه عندما يكون في الغاب بين صفوف النخيل والآكام والربى الخضراء فيقول:

في الغابِ دنيا للخيالِ وللــرؤي ... والشِّعر والتفكيـرِ والأحلامِ
في الغابِ في الغابِ الحبيبُ وإنّه ... حرمُ الطبيعة والجمالِ السامي
طهّرتُ في نارِ الجمالِ مشاعري ... ولقيتُ في دنـيا الخَيالِ سلامي
ونَسِيـتُ دنيـا الناس فهي سخافةٌ ... سكــرى من الأوهـامِ و الآثامِ
وقبستُ من عَطْفِ الوجود و حُبّه ... وجمالِه قبسـاً أضـاء ظـلامي
فرأيـتُ ألـوان الـحـيـاةِ نضيرةً ... كنضارةِ الزَّهر الجميل النامي

إنّ الشابي في هذه الأبيات يرى الغاب قبساً أضاء الطريق أمام نفسه الحائرة في حلكة الظلمات، كما يراه وسيلةً طهّرتْ نفسَه من الأوساخ والأدران التي علقتْ بها بسبب مجالستِها رفقاءَ السوءِ، ثمّ يشير إلى أنّ الغاب معبدٌ يطهر الروح والنفس والفكر، ويجد فيه الشخص الراحة والطمأنينة ويتخلّص فيه من هموم الحياة وأعباء مشكلات المجتمع.

## ب - الطبيعة الحية:

ولم يتوقف الشابيّ في قصائده عند حدود المظاهر الطبيعية الصامتة بل تعدّاها إلى مظاهر طبيعية حيّة، والتَفَتَ إلى البلبل، والعصفور، والنحل والفراش وغيرها من هذه المظاهر فنراه في قصيدة له بعنوان (مناجاة عصفور) يخاطب العصفور ويبثّه شكواه، فيقول:

أيــها الطائرُ الكئيــبُ تَــغَـــرَّدْ ... إنّ شدو الطيور حلوٌ رخيمُهْ
و ارتشفْ من فمي الأناشيدَ سَكْرى ... فالهوى ساحرُ الدلال وسيمُه
وأجبــنـي فَــدَتْـــك نفـــسي ماذا ... أمـصـابٌ أم ذاك أمر ترومـه؟
بـل هـو الفن واكتئـابه والـفــنـــ ... ـان جمٌّ أحـزانـه و هـمـومـه
أبـداً يـحـمـل الـوجـود بـمـــا فيــ ... ـه كأنْ ليس للوجود زعيمه

خلّ عِبْءَ الحياة عنك وهيا  بمحياً كالصبح طلقٍ أديمه
فكثيرٌ عليك أن تحمل الدنيا  وتمشي بوقرها لا تريمه

إنّ هذه الأبيات تدلّ على اندماج الشاعر في الطبيعة ومحاكاته لها في غاية الروعة والتصوير، ويخاطب الطائر ويبثّه شكواه ويحثّه على التغريد.

إنّه يرى نفسه طائراً يغرّد بصوت الكآبة والزفير، طائراً يغمره إحساسٌ عميقٌ غريب عندما يسمع صوت الطيور المتدفّق من صميم قلبها المملوء حرارة وإخلاصًا، إنّه يرى سعادته وسروره في التحدثّ مع الطيور والاستماع لشدوها وتغريدها، والابتعاد عن الناس الذين لا يرى فيهم إلاّ كلّ غادر وخبيث، جلُّ همّه أن يُرضِيَ نفسَه ولو كان ذلك على حساب ظلم الآخرين.

فجميع قصائد الشابي تكاد لا تخلو من المظاهر الطبيعية، لأنّه يراها كغيره من الرومانسيين، أداةً لبيان ما يدور في نفسه من عواطف وأحاسيس مشبوبة، فمثلاً في قصيدته إرادة الحياة، تتحوّل الطبيعة بأرضها ورياحها وغابها إلى شخوصٍ حيّة يبادلها الحديث، ويسألها عن حقائق الوجود.

إذا الشّعْبُ يَوْمَاً أرَادَ الْحَيَاةَ  فَلا بُدَّ أنْ يَسْتَجِيبَ القَدَر
وَلا بُدَّ لِلَّيْلِ أنْ يَنْجَلِي  وَلا بُدَّ للقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِر
كَذلِكَ قَالَتْ لِيَ الكَائِنَاتُ  وَحَدّثَني رُوحُهَا المُسْتَتِر
وَدَمدَمَتِ الرّيحُ بَيْنَ الفِجَاجِ  وَفَوْقَ الجِبَال وَتَحْتَ الشَّجَر
إذَا مَا طَمَحْتُ إلى غَايَةٍ  رَكِبْتُ الْمُنَى وَنَسِيتُ الحَذَر
وَأَطْرَقْتُ أُصْغِي لِقَصْفِ الرُّعُودِ  وَعَزْفِ الرّيَاح وَوَقْعِ المَطَر
وَقَالَتْ لِيَ الأَرْضُ لَمَّا سَأَلْتُ:  " أَيَا أُمُّ هَلْ تَكْرَهِينَ البَشَر؟"
"أُبَارِكُ في النَّاسِ أَهْلَ الطُّمُوحِ  وَمَنْ يَسْتَلِذُّ رُكُوبَ الخَطَر
وأَلْعَنُ مَنْ لا يُمَاشِي الزَّمَانَ  وَيَقْنَعُ بِالعَيْشِ عَيْشِ الحَجَر
هُوَ الكَوْنُ حَيٌّ، يُحِبُّ الحَيَاةَ  وَيَحْتَقِرُ الْمَيّتَ المنْدثر
فَلا الأُفْقُ يَحْضُنُ مَيْتَ الطُّيُورِ  وَلا النَّحْلُ يَلْثِمُ مَيْتَ الزَّهَر

### 3- المرأة والحبّ:

لعب الحبُّ دوراً كبيراً في آداب أقوام مختلفة من العالم، وكانت المرأة منذ قديم الزمن بالنسبة للرجل هي المصدر الرئيس لإثارة مشاعر الحبّ عنده، فالتفّ الرجلُ حولها التفافاً جعلت منه شاعراً مبدعاً وفنّاناً بارعاً، ورسّاماً حاذقاً، فكتب ونظم ورسم أحسن آثاره ونتاجاته حول المرأة.

وموضوع المرأة والحب شغل حيّزاً كبيراً في آثار ونتاجات أدباء العرب على مرّ العصور، وكان الفكر الذي يسيطر على ذوات الكثيرين من الأدباء في العالم العربي هو أن المرأة مثلٌ للغدر واللؤم وخسّة الطبع، مثلما تظهر في قول المتنبي:

إذا غَدَرَتْ حَسْنَاءُ وَفَّتْ بِعَهْدِهَا  فَمِنْ عَهْدِهَا أَلَّا يَدُومَ لَهَا عَهْدُ[1]

وهذه النظرة المادّيّة بالنسبة للمرأة جعلتْ الأدباء لا يفهمون منها إلاّ أنّها جسدٌ يُشتهى ومتعة من متع العيش الدنيء، فأخذوا يصفون المظاهر الجسديّة في المرأة من خدٍّ، وقدّ، وساق، وما إلى ذلك من الأوصاف المادّيّة، دون الاعتناء بما وراء الجسد من روحٍ ساميةٍ وعواطف صادقةٍ وأحاسيس طاهرة، تؤدّي إلى السَّير مع الحبيبة في عالم الخيال والأحلام، ويرى الشابي (في كتابه الخيال الشعري عند العرب) أن هذا الأنموذج عام عند كل شعراء العرب حتى عند الشاعر العذري جميل بثينة، الذي يتغزّل بمحبوته قائلا:

حلّتْ بُثَيْنَةُ مِنْ قلبي بمـــنزلةٍ  بينَ الجوانِح لم يَنْزِلْ بها أحدُ
صادتْ فؤادي بعينيها ومُبْتَسَمٍ  كأنّه حيــن أبْـــدَتْـــه لنا بَرَدُ
وجيدِ أدماءَ تحنـــوه إلى رشأ  أغـــنَّ لـم يتّبـعها مثلَه وَلَدُ

فجميل بثنية في هذه الأبيات ركزّ على المظاهر الحسيّة والجسديّة عند المرأة ولم يعتن بما وراء الجسد من روح سامية طاهرة تزخر بمعان قدسيّة.

ولكنّ المرأة في شعر الشابي المتأثّر بالتيّار الرومانسي احتلّت مكانة رفيعة لم تظفر بمثلها في الأدب القديم، فلقد أتّجه (الشابي) إلى تقديسها والخضوع لسلطانها، فعاطفة الحبِّ عنده كانت بمثابة

[1] المتنبي: ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت، (د ط)، (دت)، ج 1، ص: 397.

تجربة روحيّة ترتبط بالمعاني الطاهرة والعفة والصمود أمام الشهوات، هذه العاطفة الصادقة جعلته يري المرأة ملكا هبط من السماء ليطهّر النفوس من الأوساخ والأدران، ويرفع عنها الغمّة والأحزان، ويسوقها إلى عالمِ الطهارة والأمان، عالم الخيال والأحلام.

إنّ من أروع قصائد الشابّي في الحبِ والمرأة قصيدته (صلوات في هيكل الحبِّ)، التي تعدّ أنموذجاً بارزاً لنضوج الشعر الرومانسي عنده، يبتدئ الشابّي قصيدته هذه بمناجاة حبيبته ويركّز في وصفه على صفة العذوبة والرأفة والطهر والحنان، ويراها مقدّسة عند جميع الناس حتّى الشقيّ العنيد ويجعلها رمزاً للسعادة وأداة لإدخال الفرح والسرور في القلوب التعسة، ووسيلة لإحلال الأمن والسلام في العالم، فيشبهها، بفينيس إلهة الجمال عند الرومان وبملك من ملائكة الجنة، كما يراها طريقاً تتفتّح من خلالها مواهبه وتنميتها، وبها تنضج عبقريّته وتسمو، وتسعد نفسه، فيقول:

| | |
|---|---|
| يا لها من طـهارةٍ تَبْعـثُ التقـــ | ـديس في مهجة الشَقّي العـنـيـد |
| أي شَيءٍ تراك؟ هـل أنـت فينيـ | ـسُ تـهادتْ بين الورى من جديدٍ |
| لِتُعِيْدَ الشبابَ والـفـرحَ المعـــ | ـسولَ للعالَم التعـيسِ العـــمـيد |
| أم ملاك الفردوس جاء إلى الأر | ض ليحيي روحَ السلامِ العهـيـد |
| أنتِ تُحْـيـيـنَ في فؤادِيَ مـــا قد | ماتَ في أمسيَ السعيد الفـــقـيـد |
| وتُشيـــدينَ في خرائب روحـــي | ما تلاشى في عهدي المـــجدودِ |
| من طموحٍ إلى الجمالِ إلى الفـنّ | إلى ذلـك الفـــضـــاءِ البـــعـيـــد |
| وربيـــعُ الـــشبـــاب يُذبلُـــه الـدهـ | ـرُ ويمضي بحسنـه الـمــعبودِ |
| غيرُ باقٍ في الكونِ إلاّ جمالُ الـــر | وحِ غضّاً على الزمـان الأبـيـد |

ونحن إذا تصفّحنا ديوان الشابي وجدنا قصائده التي عالج فيها موضوع الحبِّ والمرأة قريبة جدّاً في معانيها السامية من هذه القصيدة، لأنّه يرى الحبَّ في معظمه رمزاً للسعادةِ، والمرأة مثالاً للطهر والإنابة.

فالشابي عندما يعالج هذا الموضوع في شعره تنصهر روحه بروح محبوبته ويحلّقان معاً في عالم الخيال والأحلام، في عالمٍ روحاني لا يوجد فيه إلاّ الحبّ الحقيقيّ الذي هو رمز السعادة الأبديّة الخالدة :

| | |
|---|---|
| الحبُّ شعـلةُ نورٍ ساحرٍ، هبطتْ | مِنَ السَّماء فكانتْ سـاطـعَ الفَلَقِ |

| | |
|---|---|
| ومزّقتْ عن جفونِ الدهرِ أغشيةً | وعَنْ وجوهِ الليالي بُـرْقَعَ الغَسَقِ |
| الـحـبُّ غـايـةُ آمالِ الـحـيـاة فمـا | خوفي إذا ضمّني قبري وما فَرَقي |

## 4- الإحساس الحاد بالألم والتشاؤم:

ظاهرة الألم ظاهرة عامّة لم تترك شخصاً إلاّ وأصابته بسهامها، فجميعنا وربّما دون استثناء مرّت علينا لحظات طوال أوْ قصار، عانينا خلالها من الحزن والأسي على آمالٍ ضاعتْ، وفرصٍ ولّتْ، وأعزّاء أو أصدقاء فقدناهم، وجميعنا بلا استثناء شعر في لحظةٍ من لحظات حياته أن الحياة في هذه الدنيا أصبحت عديمة الجدوى، وأنّها كفاحٌ طويلٌ وعقيمٌ، وأنّ لحظات السعادة والفرح فيها أقل بكثير من لحظات المشقّة والعناء، وقد انعكست هذه الظاهرة في الأدب وكانت في أدب الرومانسيين أشد انعكاساً، وعالج الشابي، هذه الظاهرة في معظم قصائده لأنّه كان يعاني الأمرّين، ضغوطا نفسية وضغوطا جسميّة؛ فالضغوط النفسيّة نتجت عن فقدان والده، فضلا عن الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة المتردّية التي لحقت بشعبه بسبب الاستعمار والتخلّف، والأهمّ من ذلك ظلم المجتمع له، والضغوط الجسميّة الناتجة عن مرضه الذي عانى منه كثيراً ورمز إليه في بعض أشعاره، فالأوضاع المأساويّة التي أحاطت بالمجتمع التونسي بسبب الاستعمار من ناحية، والتخلف والجمود من ناحية أخرى، أثّرتْ على نفسيّة الشاعر الحسّاس تأثيراً قويّاً ممّا جعلته يتألم ويتعذب أشدّ العذاب، ولقد أشار في قصائد عديدة إلى الحياة الصعبة المريرة التي يعيشها هو وشعبه تحت وطأة الاستعمار؛ ففي قصيدته (للتاريخ)، يقول:

| | |
|---|---|
| البؤسُ لابنِ الشَعبِ يأكلُ قلبه | والمجدُ والإثراءُ للأغـرابِ |
| هذا قلـيـلٌ مِـــنْ حياةٍ مُرَّةٍ | في دولةِ الأنصاب والألقاب |
| إنّي أرى فأرى جموعاً جمّةً | لكنّها تحـيـا بـــلا ألبابِ |

وفي قصيدته (الدنيا الميّتة)، لا يتألم الشابي من الظلم والاستبداد الذي حلّ بقومه بل يتألم من تخلّف شعبه وجموده، ورجعيّته وجهله، فيقول:

| | |
|---|---|
| أيها الشعب ليتني كنت حَطَّا | بًا فأهوي على الجذوع بفأسي |
| ليتني كنـت كالسـيول إذا سا | لت تهـد القبـور رمسا برمس |

ومن أبرز آلام الشابّي النفسيّة ظُلْمُ المجتمع له، فهو يبذل قصارى جهده للدّفاع عن حقّ شعبه والرفع من مستواه الفكري والثقافي وتوفير السعادة له، لكنّه لا يظفر عنده بإقبال وإجلال؛ لذا تثور ثائرته وينقم على المجتمع الذي لا يكترثُ لنصائحه ولا يقدّر ما يقوم به الشاعر من أعمالٍ لرفع نير الظلمِ عنه، فيراه روحاً غبيّة تكره التقدّم والنور، وتحبّ الجهل والديجور، وهو يعبر عن هذه المعانى في قصيدته (النبّي المجهول)، بقوله:

أنت روحٌ غبـيّـةٌ تـكـرَهُ النورَ وتقْــضـي الـدّهـورَ في ليل مَلْس
أنت لاتدرك الحقائـق إن طافتْ حــوالـــــيــك دون مسّ وجــسّ
في صباحِ الحياة ضمّخثُ أكوا بي وأتــرعتُهات بخـمـرةِ نفسي
ثمّ قدّمـتُــها إلـيـك فـأهـــــرقـ ـتَ رحيقي و دُسْتَ يا شعبُ كأسي
فـــتـــألّـمـــتُ ثـمّ أَسْــكَتُّ آلا مي وكفكفتُ من شعوري وحسّي

ومما زاد من حدّة آلام الشابي، ونغّصَ عليه عيشه أكثر موت أبيه الذي كان يراه ملاذاً لنفسه عندما تشتدّ به الكربات، وتثقل كاهله المشاكل والأحداث، ففي قصيدة (يا موت)، نرى الشابي يصرخ صرخةً مليئةً بالذكريات ممزوجةً بالأحزان والأشجان فيقول:

ياموتُ قد مزّقتَ صدري وقصمتَ بالأرزاءِ ظهري
ورَمَيْـتَــنِــي من حــالقٍ وسَخِـرْتَ مــنّــي أي سُخْرِ
وفجعـتـنـي فـيمـن أحِبُّ و مـــن إليــه أبـثُّ ســرّي
وأَعُـدُّه فـجـريَ الـجـميلَ إذا أُدلـــهــمَّ علـيّ دهـــري
ورزأْتَــنِـي فـي عـمـدتي ومشـورتـي في كـلِ أمري

ولقد أثّرت الضغوط النفسيّة والجسميّة على الشابي تأثير بالغاً أدّى به إلى التشاؤم والكآبة؛ وإنّ من أبرز قصائده التي حملت ميسم التشاؤم قصيدته (إلى الله)، ففي هذه القصيدة تشتدّ الآلام والمصائب على الشابي حيث لا يجد في الكون إلاّ الظلمة والحلكة فيتجه إلى الله سبحانه، وتعالى ويزلّ زلّة عظيمة ولكنّه سرعان ما يعود إلى رشده ويستغفر ربّه حين يذكرُ أنّه تفوّه بهذه العبارات وهو في أشدّ حالةٍ من اليأس والقنوط والأسى، فيبتدئ قصيدته بقوله:

يا إله الوجودِ هذي جراحٌ في فؤادي تشكو إليك الدّواهي
هـذه زفرة يُصعّدهـا الــهمُّ إلى مَـسْـمَـعِ الفضـاء السـاهي

ثمّ يلقي اللوم على الله سبحانه وتعالى ويقول:

أنتَ عذّبتني بدقّةِ حسّي / وجرّعتني مرارةَ آهِ
أنتَ عذّبتني بدقّةِ حسّي / وتعقّبتني بكلِّ الدَّواهي
بالأسى، بالسّقام، بالهمّ، بالوحـ / ـشة باليأس، بالشقاء اللامتناهي

إلى أن يصل إلى قوله:

يا ضميرَ الوجودِ يا عالَم الأر / واح يا أيّها الفضاءُ الساهي
خبّروني هل للورى من إلاه / راحم - مثلِ زعمهم -أوّاه
إنّني لم أجده في هذه الدُّنـ / ـيا فهل خلف أُفْقِها مِنْ إلاه

لكن سرعان ما يفيق الشاعر، ويستغفر ربه ويقول:

ما ٱلذي قدْ اتيتَ يا قَلْبِيَ البا / كي وماذا قد قلتِه يا شفاهي
يا إلهي قد أَنْطَقَ الهمُّ قلبي / بالذي كان فاغتفرْ يا إلهي

ويبدو واضحا في هذه الأبيات أن التشاؤم قد عصف بنفس الشاعر بسبب ما وجده في حياته من متاعب جسدية جراء مرضه، ونفسية جراء وفاة أبيه وابتلاء بلاده بالمستعمر الفرنسي البغيض الذي جثم على الأرض وتحكم في مصائر الناس مقيدا إياهم في شقاء الحرمان والبؤس.

انتهى